ISLĀMIYYĀT 34 (2012): 151 - 157

الإسلام في داغستان

Kamilov Askhabali
Mudasir Rosder
Abdul Rahman Mahmood

ملخص

يتفق المؤرخون أن أول دخول الفتح الاسلامي لمنطقة القوقاز كانت عام ٦٣٩ م، و لكن إنتشار الاسلام كان بطيئا لعدة أسباب أهمها الطبيعة الوعرة لجبال القوقاز، فتلك المرتفعات التي قد يصل ارتفاعها إلى أكثر من خمسة آلاف متر لم تكن معروفة للعرب الذين أتقنوا القتال في السهول و الصحاري المنبسطة. و من أول الأيام دخول الإسلام إلى المنطقة لها تأثير على الداغستانيين أكثر من تأثير أي ديانات و فلسفات الأخرى، و تكمن السيطرة للإسلام بما فيه من الإعتقاد بأسس الأخلاقية العالية، إلا أن الديانات في داغستان اليوم لا تحتل المكانة التي قد يحتلها في بلدان الشرق الأوسط أو حتى في عدد كبير من بلدان العالم ككل، بسبب تأثير الشعب بالفكر الشيوعي الإلحادي الذي يضع الدين في خانة الثقافة و التعليم.

ABSTRACT

The historians agree that the first Islamic conquest to Caucas was in 639M, but the spread of Islam was slow for many reasons. The most important of which is the difficult nature of the Caucas mountains. The altitude of the Caucas mountain may reach more than five thousand meters. This was unknown by the Arabs who have only much experiences in fighting on the ground and the flat desert. Since the first day of existence of Islam in the area, Islamic religion brought more impact on the Dagestnian people compared to the impact of any of other religions and philosophies. Islamic influence lies in its principles of high code of ethics. Islamic religion has influenced Dagestan not as equally as the Middle East countries or even the other countries in the world, because of Dagestnian people were influenced by the atheistic belief before this, that is the communist ideology, which classifies religion to be similar as culture and education.

Keywords: Caucas, Dagestan, Islam, communist ideology, Islamic religion

مقدمة

عاش الشعب الداغستاني يتذبذب في أمواج عقائده القديمة الزردشتية و العقيدة النصرانية الوافدة من الغرب التي ما زالت بعد جمهوريات القوقاز تدين بها كجورجيا و أرمينيا، و قد دخلت النصرانية إلى داغستان فيما بين القرنين الرابع و الخامس الميلاديين (*М.Р.Курбанов, стр 129-130*) و انتشرت أفكارها و سلوكياتها في المجتمع الداغستاني.

و أيضا في القرنين الخامس و السادس الميلادي هاجروا إلى داغستان بمجموعات كبيرة تات (Таты) و هم من القومية الداغستانية، الذين جاءوا من إيران (*Ханбабаев.К.М, стр 54*) و دينهم كانت اليهودية، و فيما بعد أصبحوا من سكان أصليين في داغستان، و لهم دورهم في نشر ثقافاتهم و اتجاهاتهم الفكرية في المجتمع الداغستاني.

و أما الاسلام فله تأثير على الداغستانيين أكثر من تأثير أي ديانات و فلسفات الأخرى، و تكمن السيطرة للإسلام بما فيه من الإعتقاد بأسس الأخلاقية و تركيز على العلاقات المتبادلة بين الأفراد و احترام للآباء، و الإيمان بالتعليم و العمل، و هذه التعاليم الإسلامية الراسخة هي التي تقف وراء تقبل الداغستانيين لمبادئ الأخلاق الاسلامي العالي. و يرجع أول اتصال للمسلمين بهذه المنطقة إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سنة ٦٤٣ م (*А.Ш.Исмаилов, стр 159*) و يعود معظم التقاليد و المعتقادات و الممارسات الدينية عند الشعب إلى الإسلام، مع وجود في داغستان أعراق و قوميات منتصبة إلى الأديان المختلفة، ففي داغستان مجموعة كبيرة من الروس و دينهم النصرانية و مجموعة من اليهود الجبال و دينهم اليهودية، و وجود الأعراق المختلفة منهم سكان أصليين و منهم من هاجر إلى داغستان و منهم من أسكنته حكومة الروسية، لعب دورا في إنتشار مجموعة من الأديان و المعتقدات المختلفة.

Bab 16 CO.indd 151 8/9/2012 2:39:15 PM

الفتوحات الإسلامية في القوقاز

علاقة المسلمين بقوقاز و داغستان خاصة قديمة، و ترجع إلى الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (*محمود شاكر، ص66*) فقد أدرك المسلمون أهمية إيصال رسالتهم للقوقازيين و لذلك لم تنقطع محاولاتهم لإختراق معاقلهم و كان أول اختراق إسلامي لمنطقة القوقاز عام ٦٣٩م في منطقة أذربيجان (*Rafig Aliev, p. 16*) تحت قيادة سلمان بن ربيعة، ثم استطاعوا بسط نفوذهم على ممر دربند أو باب الأبواب كما سماها المسلمون نظرا لاتخاذها منطلقا لنشر الإسلام في ربوع المنطقة وآسيا الوسطى وشرق آسيا. و في سنة ٦٨٥-٦٨٦م استطاعت جيوش المسلمين أن يستقروا في مدينة باب الأبواب (*К.М.Ханбабаев, стр 160*). و منها إتجهت الحملات الإسلامية إلى بلاد الخزر و هكذا أصبحت مدينة باب الأبواب منطلقا لحملات الإسلامية.

و في أوائل أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد تمكن الاسلام في مدينة دربند و أسلمت قبائل داغستانية، إلا أن في المناطق الجنوبية لداغستان كان انتشار الاسلام بطيئا، لتمكن النصرانية و طبيعة البلاد الجبلية إذ اعتصم عدد من السكان في مواقع التي يصعب إليها الوصول. و أيضا الروم كان يحرضهم باستمرار ضد المسلمين و يدعوهم إلى المقاومة، و يمدونهم بكل متطلباتهم من السلاح و الغذاء و المقاتلين أحيانا (*محمود شاكر، ص66*)، إلى جنب ذلك كانت دولة الاسلامية تعاني من خلافات و فتن، فكان سكان جنوب بلاد القوقاز كلما أشعرت النار الخلافات في الدولة الاسلامية خلعوا الطاعة و أعلنوا العصيان و أظهروا التبعية للروم، و كلما هدأت الفتن و الخلافات طلبوا العفو و أعلنوا الطاعة، و هذا كله جعل انتشار الاسلام في المناطق القوقاز بطيئة.

و لقد استمرت هذه الدفعة للدعوة في وقت الخلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلا أنها أصيبت بالتجمد في بداية العصر الأموي، و أعادت نشاط في نهاية العصر الأموي (*سيد عبد المجيد بكر، ص371*)، أما الأجزاء الشمالية فقد بقيت بعيدة عن أيدي الفاتحين مدة طويلة من الزمن لتوقف الفتوحات و ضعف الدولة الاسلامية و إنقسامها، و لذا بقي السكان على وثنيتهم.

ففي سنوات الأولى من خلافة هشام بن عبد الملك شهدت منطقة داغستان ممثلة في قاعدتها مدينة باب الأبواب تصعيدا لبث الدعوة الاسلامية و تصعيدا لصراع بين الإسلام و القوة المعادية الممثلة في الخزر و الروس، و اتبع الأمويون سياسة جديدة في نشر الإسلام في هذه المنطقة التي ركزت على ابعاد العناصر المشبوهة و تشجيع العناصر العربية على استيطان في المنطقة، و تطبيقا لسياسة الإستيطان أسكن مسلمة بن عبد الملك في منطقة الرحاب ٢٤،٠٠٠ ألف من أهل الشام، أسكنهم في مدينة باب الأبواب (*سيد عبد المجيد بكر، ص371*)، و زادت عدد المسلمين الوافدين على داغستان و كانوا يقومون بالنشاطات الدينية، و بناء المساجد، و حلقات الدراسية. و منها تطور علاقات السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية مع الدولة الاسلامية و العرب التي أدت إلى إنتشار الاسلام و الثقافة الاسلامية في داغستان، و بدأ الاسلام يتمكن في هذه المنطقة.

و في القرن الثالث الهجري نجح القائد العباسي بغا الكبير في تأكيد سيطرة الاسلام على المنطقة، و زادت نسبة معتنقي الاسلام. و في القرن الخامس الهجري سيطر الأتراك السلاجقة على منطقة الرحاب و ما حولها و أصبح الحكام جدد فيها من المسلمين، و إضافة إلى ذلك إنهم أتوا بالمزيد من المسلمين التي تنتمي إلى أصول التركية فزادت نسبة المسلمين زيادة عظيمة (*سيد عبد المجيد بكر، ص371*). إلا أن المنطقة أصيبت بنكسة جديدة نتيجة سيطرة المغول.

جاء جنكيزخان الذي عاش ما بين عامي ١١٦٥ و١٢٢٧ ميلادية فسيطر على المنطقة كلها، و عندما قسم دولته كانت بلاد القوقاز من نصيب أسرة ولده الكبير جوجي (*مصطفى محمد الطحان، ص23*) و كانوا على الوثنية في بداية الأمر و بعد أسلم مغول الشمال، دخل مغول من المسلمين إلى الصراع مع أبناء عمومتهم مغول. فلم يكن هناك مجال لإنتشار الإسلام و دعوة إلى الاسلام، كما ليس لديهم الفقه المطلوب للعمل، و لم يلبث أمرهم طويلا، ضعف المغول و تجزأت دولتهم و لم تتغير شيء.

و قام الروس يحاربون دولة مغول حتى سيطروا على بلاد تتار، و وجهوا جهودهم نحو القوقاز فاحتلوا بلاد الكرج عام ٩٨٥ه و بلاد شروان و منها انتقلوا إلى داغستان فاحتلوها و استمروا في توسعهم حتى عام ١٠٤٩ه، و شمل احتلال بلاد القوقاز كلها (*محمود شاكر، ص67*).

و إن كان هذا التوسع بين مد و حرز بين العثمانيين و الصفويين و الصفويون هم آل صفويان: سلالة من الشاهات حكمت في بلاد فارس (إيران) سنوات ١٥٠١- ١٧٨٥ م، أسس الشيخ صفي الدين الأردبيلي (١٢٥٢-١٣٣٤م) طريقته الصوفية في أردبيل (أذربيجان) سنة ١٣٠٠ م. أصبحت أردبيل عاصمة دينية ثم سياسية لأتباعه (مع تحولها إلى حركة سياسية). تحول أبناء هذه الطائفة منذ

منتصف القرن ١٥م إلى المذهب الشيعي. فمع نزول العثمانيين في تلك المناطق بدأ الاسلام ينتشر بين السكان و كان لهذا أثره الواسع لصالح العثمانيين إذ وقف السكان المسلمون بجانبهم ضد الروس النصارى و الصفويين، و في نفس الوقت استفادت روسيا من صراع بين العثمانيين و الصفويين. و عندما ضعف أمر الصفويين كان العثمانيون قد ضعفوا أيضا، و استغل قيصر روسيا فرصة و احتل بلاد داغستان.

وجد مسلموا القوقاز أنفسهم وحيدين في الصراع لأن العثمانيون و الفرس يتراجعون بإستمرار، و إعتمدوا على أنفسهم و من هذا المنطلق بدؤوا يهيئون أوضاعهم الداخلية حتى إذا تم ما أرادوا ألفوا حكومة عام ١٢٤١ه في بلاد داغستان على رأسها العلماء، و برز بينهم الشيخ شامل الذي أرسل العلماء إلى المناطق الأخرى لإستنهاض الهمم و بدأ القتال بين مقاتلين الشيخ شامل و بين الروس، بدأ الشيخ شامل خطته بالهجوم على الروس مستفيدا من انشغال الروس بحرب القرم التي قامت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية في عام ١٨٥٣، واستمرت حتى ١٨٥٦م. فاضطروا أن ينسحبوا من عدة المناطق. فلما انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ه حشدت روسيا جيشا لا قبل له به إذ يزيد على ثلاثمئة ألف مقاتل، و بدأت الهجوم بكل وحشة على داغستان و شيشان، حتى غادروا داغستانيون و شيشانيون بعض القرى نتيجة وحشة الروسية، و اتجهوا نحو خلافة العثمانية. فنقلتهم الدولة العثمانية إلى أوروبا ليؤدوا دورهم لما عرف عن شجاعتهم و تضحيتهم، غير أن الدول الأوروبية النصرانية قد أدركوا دور هؤلاء القوقازيين فألزموا الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٢٩٥م على نقلهم ثانية من جبهات القتال، فأخذتهم الدولة من ميدان المعارك و وزعتهم على هامش الصحارى و البوادي في بلاد الشام و العراق (*محمود شاكر، ص69*).

و أسر الشيخ شامل عام ١٢٨١ه (*محمود شاكر، ص70*) و تفرقت الجيوش القوقازية، و دخلت روسيا المنطقة و ابتلعتها و بدأت تمارس أنواع الإضطهاد و الإنتقام من كل الجماعات التي نالت على أيديها من الهزائم، و تكررت هجرات السكان إثر هذه السياسة الروسية. و وصل الروس بعد السيطرة على هذه المناطق إلى جهات جبلية تصعب فيها العمليات العسكرية، و تصعب فيها تقدم إضافة إلى ذلك إقترب الروس إلى عاصمة خلافة الإسلامية و هذا ما كان يهمهم لأنهم ما كانوا يريدون أن يدخلوا حرب طويلة الأمد و إنشغلوا بتقوية دولتهم.

و مع مرور الزمن و تطور العلاقات بين شعب الداغستاني و شعب العربي الاسلامي، بدأت تزداد أعداد المسلمين في داغستان ففي قرن ٦-١٠م جيوش الإسلامية دخلوا مدينة دربند و على أيدهم أسلمت أقوام من داغستانيين لزغين (Лезгины) تباسران (Табасаранцы) رتول (Рутульцы) تساخور (Цахуры) و في مرحلة الثانية في نهاية قرن ١٠ و بداية قرن ١٢م أسلم أقوام من أغول (Агульцы) و لاك (Лакцы)، و في مرحلة الثالثة ما بين قرنين ١٤-١٧م إنتشر الإسلام بين درغين (Даргинцы) و أوار (Аварцы) و كومك (Кумыки) و نغي (Нагайцы) (*К.М.Ханбабаев, стр 162*).

و من خلال هذه الأحداث الأولى للفتوحات الإسلامية، ممكن نعرف أسباب التي سهلت نشر الإسلام في قوقاز و داغستان خاصة، و هي:

أولا: ضعف تأثير الدولتين الفارسية و البيزنطية المتحضرتين على القوقازيين بسبب عدم استقرار السياسي عندهم نتيجة حروب التي دارت بينهم لزمن طويل.
ثانيا: تنافر الديني التي عاش فيه الشعب الداغستاني بسبب صراع الديانات اليهودية النصرانية و الزردشتية.
ثالثا: لم تكن حضارات التقليدية التي تأثرت بها البلاد قادرة على الدفاع عن نفسها أمام الإسلام، و عقيدة الإسلامية.
رابعا: تسامح الديني الإسلامي مع معتنقي الأديان الأخرى، مهد لقبول الإسلام لتوافقه مع العديد من التقاليد تلك الحضارات.
خامسا: وضوح المبادئ الذي من خلاله يشعر الفرد بأنه عضو في جماعة واحدة متماسكة.

يمكن القول بأن الظاهرة التبادل و التفاعل بين الثقافات المختلفة لكل من العرب المسلمين و الشعوب الأخرى هي التي حددت السمات الحضارية الرئيسية للتطور الثقافي و المادي في داغستان، فإنتشار الإسلام في داغستان و استقراره في عصور السابقة أدى إلى امتزاج الأجناس المختلفة من الناس الذين دخلوا الإسلام و أخذوا من القيم الإسلامية أصلا متينا لحياتهم المعنوية مع التمسك بالقيم القومية الذي نتيجة لذلك شهدت المنطقة ازدهارا اجتماعيا.

طرق إنتشار الإسلام في داغستان

إن إنتشار الإسلام في داغستان و استقراره فيه أدى إلى إمتزاج أجناس المختلفة و التعايش السلمي بين الأديان و القوميات المختلفة، و كانت الأسباب العميقة محركة لعملية

الإمتزاج الإجتماعي و الحضاري و إنتشار الاسلام في المنطقة تكمن في التطابق بين القيم التي جاء بها الإسلام بكونه دينا و حضارة و أخلاقا و نمطا للحياة، و قد وصل هذه القيم الإسلامية و استقر عند الشعوب في داغستان عبر الطرق الآتية:

1. طريق الفتح و الجهاد
بلغت الجيوش الإسلامية أطراف داغستان عبر الطرق البرية إبان خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه و كان على رأس الجيش الإسلامي سراقة بن عمرو الذي حاصر مدينة دربند (*Rafig Aliev, p. 17*)، التي سماها العرب بباب الأبواب، و بعد حصار طويل لمدينة عقد والي دربند معاهدة صلح مع سراقة بن عمر، و كانت جميع المعاهدات تنص على الأمان على أموال الناس و أنفسهم و ملتهم و على أن لا يحال بينهم و بين شعائرهم الدينية و القومية.
2. طريق الدعوة في المناطق الداخلية
كثير من أهل دربند أسلموا لما رأو الصدق و التضحية و الولاء و الأمانة من المسلمين و الجيش الاسلامي، و لهؤلاء المسلمين الأوائل دور كبير في نشر الاسلام و الثقافة الاسلامية في المناطق الجبلية في داغستان التي ما استطاع أن يصل إليها جيش الاسلامي بسبب وجود الجبال الوعرة في المنطقة. ففي بداية الأمر المسلمون بدؤوا بإنشاء المساجد و دعوة الناس إلى الاسلام و إنشاء الحلاقات العلمية (*К.М.Ханбабаев, стр 161*) الذي لعبت دورا كبيرا في نشر الاسلام و استقراره في المناطق الداخلية في داغستان.
3. عن طريق الجند الذين استقروا في داغستان
فالجيش الاسلامي جعل من مدينة دربند مقرا لها، و أسكن المسلمين فيها، كما أسكن مسلمة بن عبد الملك ٢٥٠٠٠ ألف مسلم من أهل الشام في مدينة دربند (*سيد عبد المجيد بكر، ص371*) لأن يتمكن من الحكم و يستعد للفتوحات في باقي أجزاء القوقاز، و كانت لهذه السياسة دورا كبيرا في نشر الاسلام و إمتزاج الشعوب و استقرار الاسلام في المنطقة.
4. عن طريق التجارة و الدعوة في المناطق الساحلية
ملك المسلمون ناصية التجارة الدولية في الشرق و الغرب خاصة في القرنين الثالث و الرابع الهجريين، كانت مدينة دربند مدينة التجارية تقع على ساحل البحر القزوين، و سلوك التجار المسلمين لعبا دورا في نشر الاسلام لما رأو منهم الوفاء و الصدق و الأمانة. فالعلاقات التجارية و السياسية و الإجتماعية مع الدولة الإسلامية لعبت دورا في استقرار الاسلام (*К.М.Ханбабаев, стр 161*).
5. عن طريق تولي المسلمين حكم الولايات
فعدالة حكام الولايات من المسلمين في القضاء و الحكم، و الأمانة و الذكاء و العزيمة و الاخلاص منهم أثر على الشعوب في المنطقة، و لعب دورا في نشر الاسلام و مبادئه في البلاد، لأن الشعب عاش في الظلم و الطغيان من قبل الحكام غير المسلمين الذين ما كانوا يهتمون بأحوال الناس و كانوا يهتمون بأمورهم الشخصية فقط.

احتلال الروسي لداغستان

في أعوام ١٤٢٥-١٤٦٢م واسيلي أمير موسكوا إستطاع أن يوحد المدن المهمة: موسكوا، كييف، و ياروسلاف (*Б.Ю.Иванов: 13*) تحت سلطة واحدة. و منذ ذاك الوقت بدأت روسيا تطمع في أراضي قوقاز، و من الفترة الممتدة من العام ١٥٧٥م حتى العام ١٦٠٥م تركزت هجمات الروس على القوقاز (*В.А.Потто, стр 8-9*) و استمرت هذه الهجمات الشرسة لمدة طويلة من الزمن. و من خلال هذه السنوات كانت تقام في داغستان الثورات ضد إحتلال الروسي بقيادة العلماء، و لكن قلة المسلمين المدافعين و ضعف الدولة العثمانية و عدم قدرتها على الدفاع عن حدودها أدى إلى أنه خلافة الإسلامية ما مدت داغستان بجيوش و وجد مسلموا قوقاز أنفسهم واحديين في ميدان الصراع، و إعتمدوا على أنفسهم، و من أبرز قواد جيش الاسلامي في داغستان كان الشيخ شامل الذي دعى إلى تطبيق الشريعة و دافع عن البلاد و استمر هذا الحرب ثلاثين عاما حتى في عام ١٨٦٣م انتهت ثورة الشيخ شامل حينما انفضت القبائل عن الشيخ فوقع في الأسر، و تعتبر هذه الثورة الاسلامية أعظم ثورة في التاريخ القيصرية. و في نهاية قرن ١٨ و بداية قرن ١٩ أصبح داغستان جزءا من روسيا القيصرية، و بدأت بين الحكومتين تطور العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية (*Д.М.Магомедов, стр 93, 103*).

فالروسيا القيصرية قد تمكنت من تحقيق أطماعها الاستعمارية في احتلال بلاد المجاورة خلال النصف الثاني من القرن ١٩م، فقد ساعدها على تحقيق هذه النتيجة منذ بداية الدولة الصفوية في إيران التي راحت تتعاون مع الروسيا (*علي أحمد الخطيب، ص132*). فقد كانت إيران تمثل مانعا

سياسيا حقيقيا يفصل بين الشعوب الاسلامية حولها، و قد استغل الروس هذا المانع بين الدولة العثمانية و القوقاز، و كانت أهداف إيران وراء ذلك زيادة التبادل التجاري بين إيران و أوروبا و روسيا.

فبعد السيطرة الكامل على داغستان انتقلت أفواج من الروس نحو سهول البلاد التي استثمروا لمصلحتهم و استقروا فيها، و كثير من داغستانيين هاجروا و سكنوا في أراض الشام و العراق، فنشأ كره شديد نتيجة ذلك من المسلمين على الروس، و قابل الروس المسلمين بكره مماثل الذي أدى إلى رغبة في قتلهم، أما سكان الجبال فلم يخضعوا لمكاثرة الروس لهم إذ ليس في مناطقهم ما يشجع أهل الريف الروسي لتحرك نحوها، فبقي سكان الجبال في معزل عن جموع الروس فلم يحسوا بوطأة الاستعمار كما أحس سكان السهول، و بقي أهل الجبال يشعرون بشئ من العزة و الأنفة، و أنهم أصحاب الحل و العقد في بلادهم. و يجب أن لا ننسى أن سكان السهول ألين عريكة و أقل شجاعة، و بلادهم سهلة الإجتياز يسهل اقتحامها و يصعب الدفاع عنها لذلك كانت مقاومتهم أقل، أما سكان الجبال فأعنف طبعا و أكثر شجاعة، و أكثر صبرا على منازلة الأعداء، و مناطقهم وعرة صعبة الإقتحام يسهل الدفاع عنها (*محمود شاكر، ص88*).

فنيقلي الأول ١٨٦٥م أحد حكام في روسيا كان يلجأ إلى سياسة الكبت و الضغط على المسلمين فلا يسمح ببناء المساجد و يصادر أراضي المسلمين (*محمد عبد القادر أحمد، ص67*)، كما عملت الروسيا القيصرية على تمزيق المناطق القوقازية فتحولت مناطقهم إلى أجزاء ممزقة معزولة تدور في فلك دولة المستعمرة كما قطعوا تواصلهم مع الشعوب و الحكومات خارج روسيا و هكذ فالظلم لم يستثني أحدا بل لحق الجميع الشعوب، و تجاوز عن البداوة في أول عهد الإستعمار القيصري، و أصبحت موسكو عاصمة لدولة القيصرية.

فالروسيا القيصرية قد تمكنت من تحقيق أطماعها و لكن الحياة النيابية دخلت روسيا بعد عناء ثقيل و محاولات يائسة لتمسك بالتسلط و قهر الشعوب، و قرر المجلس النيابي (الدوما) الروسي في عام ١٩٠٥م إعطاء الحرية الدينية الكاملة (*محمود شاكر، ص115*) و بدأ المسلمون يمارسون شعائرهم الدينية و يتمتع بحرية الإعتقاد، و عاد كثير منهم إلى الإسلام، و رعم إعطاء حرية الدينية ما كان للمسلين أي أثر في الحياة السياسية أو الإجتماعية.

و برز داغستان كمركز فكري رائد، و حافظت هذه البلاد رغم احتلال على صلاتها ببلدان العالم الاسلامي، و بدأت روسيا تواجه الموقف من خلال سياسات مرحلية، تركت السكان في حالة الفقر و الجهل، و القيصر هو الذي كان يعين مفتي في روسيا، و أصبح هؤلاء مجرد أدوات يحركها القيصر كما يريد، و كل هذه الأمور قد أسهمت بدور كبير في تحرك المسلمين ضد القيصرية ليضمنوا لأنفسهم أبسط الحقوق الإنسانية و هو حق تقرير المصير. فقد انضم المسلمون و علمائهم إلى صفوف لينين بعد أن صدقوا وعوده لهم بالاستقلال. و لقد كان لينين ذكيا و نجح في أن يضم المسلمين في الاتحاد السوفيتي إلى صفه فعندما اتجه الحلفاء و خاصة بريطانيا لنجدة حليفتها روسيا البيضاء سارع لينين إلى فضح الاتفاقيات السرية التي عقدتها بريطانيا مع فرنسا و روسيا لاقتسام أراضي المسلمين.

و بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧م يوقع لينين و ستالين في الخامس عشر من نوفمبر ١٩١٧م بيانيا يذكران فيه: "لقد قرر مجلس مفوضي الشعب أن يقوم عمله فيما يتصل بالقوميات على المبادئ التالية:

1. مساواة و سيادة أمم آسيا.
2. حق الأمم الروسية في تقرير مصيرهم بحرية، بما في ذلك الحق في الانسحاب و تشكيل دولة مستقلة" (*محمد عبد القادر أحمد، ص68*).

و أعقب ذلك الإعلان بيان لينين و ستالين في ٧ من دسمبر سنة ١٩١٧م وجهاه إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا و الشرق يقولان فيه:

> يا مسلمي روسيا، يا تتار الفولجا و القرم، يا أيها القرغيز و سكان سيبيريا و التركستان، يا سكان القوقاز الأبطال و سكان الجبال الأشداء أنتم يا من هدمت مساجدكم و حطمت معابدكم، و مزق القياصر الطغات قرآنكم و حاربوا دينكم، و أبادوا ثقافتكم و عادتكم و لغاتكم، ثوروا من أجل دينكم و قرآنكم و حريتكم في العبادة، اننا هنا نعلن احترامنا لدينكم و مساجدكم و ان عادتكم و تقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها، ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أية معوقات، و لكم كل الحق في ذلك، و اعلموا أن جميع حقوقكم الدينية و المدنية مصونة بقوة الثورة و مساندتها لأنها تقوم من أجلكم و من أجل حريتكم الدينية و المدنية" (*محمد عبد القادر أحمد، ص70-69*).

لقد بلغت سياسة لينين حدا من النجاح جعل بعض المسلمين يعتقدون أن ثورة البلشفية جاءت منحة من السماء لأنقذهم من حكم القياصرة، و بدأوا في تشكيل مؤسساتهم الوطنية و الحكومية المحلية كخطوة نحو تشكيل حكومات مستقلة، كما بدأوا في بناء المساجد. و في سنة ١٩١٨م

نجحت في روسيا الثورة الشيوعية و استلم لينين السلطة (*А.С.Барсенков, стр 41*).

و بعد نجاح الثورة نقضت الحكومة الشيوعية وعودها، فتعرض الزعماء الدينيون للإضطهاد، و أغلقت المعاهد الدينية و لم يسمح بتعليم الديني، و فرضت ضرائب على المساجد. فأصدر لينين في عام ١٩١٨م أمرا إلى الجيش الأحمر بالزحف على بلاد الاسلامية دون سابق إنذار (*مصطفى محمد الطحان، ص37*)، و كانت الجيوش الروسية مدربة تدريبا حسنا و مزودة بأحدث أصلحة. و بمجرد اتمام احتلال المناطق القوقازية بدأ الزعماء الشيوعيين في روسيا بإنشاء ما يسمى بجمهوريات الحكم الذاتي. فجمهورية داغستان تأسست في شهر ربيع الأول من عام ١٣٣٩ه، و عاصمتها مدينة محشقالا (*محمود شاكر، ص201*)، و بدأ السوفيت يتهمون الشعب المسلم صراحة بمعاداة الثورة.

لقد اعتنق كثير من المسلمين روسيا الشيوعية مصدقين دعوة الشيوعيين لهم بإمكانية توفيق بين الشيوعية و الاسلام، و حاول الشيوعيون من أبناء المسلمين يكيفوا الماركسية الروسية مع الثقافة الاسلامية و لكنهم فشلوا، و في الختام يصفي الشيوعيون صفوف المسلمين تصفية جسدية و لم يستثن الشيوعيون المسلمين المخلصين لهم و الذين كانوا عوانا لهم على بقية إخوانهم من المسلمين، و كان هلاك مصير الجميع (*محمد عبد القادر أحمد، ص74*).

و استمر سياسة لينين في عهد ستالين بصورة أشد بطشا و بلغ الإرهاب الشيوعي ذروته ضد المسلمين، حيث قضى ستالين في الفترة ما بين عامين ١٩٣٦-١٩٣٨م على كل نشاط إسلامي مهما كان ضئيلا (*مصطفى محمد الطحان، ص39*)، و استمر هذا الضغط و الارهاب حتى جردوا المسلمين من أملاكهم و ما لديهم من الثروات و شرعوا بتهديم المساجد و المعاهد الدينية، و الواقع أن كثير من العمليات الإبادة الجماعية و الفردية تم في الإمبراطورية الروسية دون أن يعلم بها أحد. و نتيجة الإضطهاد الواسع الذي مارسته السلطة الشيوعية فإن عدد المسلمين قد تناقص على الرغم من أن زيادة الولادة لدى المسلمين تفوق غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

و لم يتم العدول عن سياسة إضطهاد المسلمين إلا أثناء فترة الحرب العالمية الثانية، فخلال هذه الفترة عدلت حكومة الشيوعية عن السياسة الاضطهاد التي كانت متجة ضد الأديان عامة و الإسلام خاصة، و شهدت هذه الفترة نوعا من التعايش، و قاتل أكثر من مليون تركستاني و قوقازي و تتاري مسلم في صفوف جيش الأحمر دفاعا عن أوطانهم، بل إن مفتي عموم الروسيا الشيخ عبد الرحمان رسولف كان يلقي خطبة الجمعة، و جاءت أيضا خطبته في الإذاعة، يدعوا فيها المسلمون للقتال ضد الألمان، حدث ذلك بينما حوالي ٢٠،٠٠٠ جندي مسلم هربوا من جيش الأحمر أثناء الحرب و إنضموا إلى الألمان الذين شكلوا منهم أربعة فرق قاتلت الروس (*مصطفى محمد الطحان، ص40*).

و ما أن حل العام ١٩٤٥م حيث انتهى الحرب العالمية الثانية (*А.С.Барсенков, стр 366*)، حتى عادت سياسة القمع ضد المسلمين من جديد، و استخدم ستالين سياسة تهجير الشعوب بكاملها و إحلال الروس بدلا منهم، و لم تكتفي الشيوعيون بأسلوب واحد في ممارسة الإضطهاد ضد معتنقي الأديان بل اتخذوا أشكالا كثيرة في مواجهة الأديان كنشر الكتب و النشرات المعادية للدين و مواجهة ضد الأديان، و على الرغم من وجود الديانات أخرى في روسيا كاليهودية و النصرانية إلا أن عدائهم للإسلام كان أشد، و كانوا أشد حرصا على القضاء على الإسلام. و لقد كان شغلهم إبعاد المسلمين عن دينهم و هدم أركان عقيدتهم فمنعوهم من أداء الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج (*محمد عبد القادر أحمد، ص81-80*).

فمع استلام خروتشوف السلطة عام ١٩٦٩م بدأت السياسة التدجين و التهميش تجاه المسلمين، و هي سياسة لا تقل قسوة عن السياسات السابقة إلا أنها ترتدي قفازا من حرير، فقد سمحت السلطة للمسلمين بإنشاء إدارات الدينية المحلية هدفها تحسين صورة الإتحاد السوفييتي في العالم بإعتباره صديق الشعوب و حامي المستضعفين (*مصطفى محمد الطحان، ص 41*)، و مع بداية سبعينات بدأ المسلمون يستعدون صوابهم شيأ فشيأ و يعيد تشكيل هويتهم الدينية و القومية و سمح في نوع ما في أداء الصلاة و بعض العبادات الجماعية، و لعبت الطرق الصوفية دورا في الحفظ على الهوية الاسلامية من أن تذوب.

و بعد سقوط خروتشوف يتغير الوضع، فقد دخلت العلاقات بين حكومة السوفيتية و الاسلام مرحلة جديدة من الوفاق، فقد حدت السلطة الشيوعية من الهجوم الشامل على الدين، و تابعت الدعوة المعادية للإسلام و الأديان بشكل العلمي أكثر، و أوقفت السلطة الشيوعية هجومها على رجال الدين لأنها تأكدت من عدم صلاحية هذا الأسلوب و إفتتحت بعض المساجد. و في سبعينات من قرن ١٩م كان في داغستان ٢٧ مسجد (*М.Р.Курбанов, стр 264*)، و منحت السلطات في موسكوا للإدارات الدينية الإسلامية حرية أكبر في العمل الاسلامي.

Bab 16 CO.indd 156 8/9/2012 2:39:19 PM

و منذ أن تولى غورباتشوف السلطة في الإتحاد السوفيتي في عام ١٩٨٦م بدأ عهد جديد من التغيرات السياسية و الفكرية و الإقتصادية (*А.С.Барсенков, стр 601-603*)، التي فتحت مجالا للمسلمين للتحرك و الصحوة الدينية، و أعلن غورباتشوف بأن روسيا اختارت الطريق الخطأ، و الإقتصاد الإشتراكي أصاب بلاده بالدمار. و نظرا لإرتفاع الأسعار و اختفاء السلع و ضعف نظام مركزي و صراع بين الأحزاب حول السلطة بدأت جمهوريات في الإتحاد السوفيتي تستقل، و لعن الشعب السوفيتي الشيوعية لأنها لم تجلب له إلا الفقر و الجوع و المذل و الهوان، و لم تجلب لهم الحرية الموعودة.

و بعد كل هذه المتاعب التي قدمت الشيوعية للمسلمين في روسيا عامة و داغستان خاصة، ثبت فشل الشيوعية في القيادة البشرية و توفير الرخاء، بل على عكس ذلك جاءت بالتخلف و الفقر لمعتنيقيها في الإتحاد السوفيتي عامة و داغستان خاصة. فسلطة السوفيتية سعت جاهدة للقضاء على الإسلام و لكن دون نجاح، و تشير إلى ذلك خبر الذي جاء في مجلة العلم و الدين في عددها صادر في إبريل عام ١٩٨٤م، من أن جهود مبذولة لمحاربة الإسلام في داغستان تواجه الصعوبات سواء بين الشباب أم الشيوخ، و يرى مسلموف في إحصائه أن كثيرا من الطلاب في داغستان يعتقدون أن الدين يخدم غرضا إيجابيا في المجتمع، أو أنه ليس ضارا على أقل تقدير و من ثم لا يجب محاربته (*محمد عبد القادر أحمد، ص159*).

المراجع

المراجع الأجنبية

А.Ш.Исмаилов, Махачкала 2007, *Религии в дагестане: История и современное состояние,* Дагестанское книжное издательство.

А.С.Барсенков, *История россии 1917-2004г.*

Б.Ю.Иванов, *История отечества с древнейших времен до наших дней.*

В.А.Потто, *Кавказская война, Том 2.*

Д.М.Магомедов, *Россия и дагестан.*

К.М.Ханбабаев, *Религии в дагестане:история и современное состояние,* Дагестанское книжное издательство ГУП.

М.Р.Курбанов, Махачкала 2006, *Религии в истории народов дагестана*,Издательский дом « Народы дагестана ».

Ханбабаев.К.М, Махачкала 2001, *Религии в дагестане,* Дагестанское книжное издательство ГУП.

Rafig Aliev. 1996. *Islam and Azerbaijani Culture*, Irshad-Baku.

المراجع العربية:

سيد عبد المجيد بكر، *الأقليات المسلمة في آسيا و أستراليا.*

علي أحمد الخطيب، *المسلمون في آسيا الوسطى و القوقاز، جامعة الأزهر.*

محمود شاكر، ١٩٩٤م ، *التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي.*

مصطفى محمد الطحان، *مستقبل الاسلام في القوقاز و بلاد ما وراء النهر.*

محمد عبد القادر أحمد، ١٩٩٢م، *جمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي بين الماضي و الحاضر، مكتبة النهضة المصرية.*

Kamilov Askhabali, Ph.D
Mudasir Rosder, Ph.D
Abdul Rahman Mahmood
Jabatan Usuluddin dan Falsafah
Fakulti Pengajian Islam
Universiti Kebangsaan Malaysia